المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيمُ اللهِ تَعالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

من ملامح تعظيم الله تعالى عند النحاة

اسم الباحث

د/ مصطفى صالح القموني

د. مصطفى صالح القموني

من ملامح تعظيم الله تعالى عند النحاة

من ملامح تعظيم الله تعالى عند علماء النحو

الحمد لله ذي العظمة والجلال، امتن علينا بنعمة التواصل والبيان، وأكرمنا باتباع خير مخاطِب ومخاطَب سيد ولد عدنان، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما بقي الوقت وطال الزمان، وبعد؛ فلا يخفىٰ علىٰ المهتم بعلم النحو العربي ما يبديه علماء هذا الفن من مسلك تربوي في الإعراب، عدلوا فيه عن المشهور لدىٰ النحاة في التعامل مع بعض المسائل النحوية المتعلقة بالباري سبحانه؛ وذلك تأدبًا مع الله عز وجل وملازمة الإجلال له، وهم في ذلك يبغون ترسيخ المعاني الإيمانية في نفوس طلاب العلم، يتجلىٰ ذلك في تمثيلهم واستشهادهم بما يثبت صحة القواعد النحوية، كذلك في أدبهم المتعلق باختيار المصطلحات النحوية التي يبدو فيها تعظيم الله والأدب معه بشكل بارز وجلي، أما في لفظ الجلالة فتجد في مصنفاتهم من عبارات التعظيم والتبجيل ما يجعل النفوس تنطوي مختارة علىٰ تعظيم خالقها وبارئها سبحانه، وهذا يدخل في خصوصية التناول، فإن لكل علم خصوصيته في التناول، وتبرز خصوصية علم النحو في كون الباعث الأساس لتأسيسه نابع من صون كلام الله من العبث، وفي هذا من التعظيم ما لا يخفىٰ.

وفي هذا البحث نتناول نماذج من تعظيم النحاة لربهم جل وعلا، متبعين في ذلك منهجا استقرائيا تحليليا، والغاية الرئيسة من ذلك هي لفت أنظار الباحثين إلىٰ الهدايات القرآنية المضمنة في كتب النحاة، وعدم النظر إليها علىٰ أنها تطرح قضايا نحوية بحتة ومجردة عن أي بعد تربوي.

وقد توزع البحث علىٰ المحاور الآتية:

١- معنىٰ تعظيم الله.

٢- تعظيم الله عند النحاة.

٣- تعظيمهم لله في وضع المصطلحات.

٤- التعامل مع لفظ الجلالة

٥- تعظيمهم لله في الأمثلة والشواهد.

٦- الخاتمة.

٧- قائمة المصادر والمراجع.

معنى تعظيم الله

إنّ تعظيم الله من أعظم العبادات التى غفل عنها كثير من الناس، فساءت أحوالهم، وانقلبت موازينهم، وتلاعبت بهم الشياطين والأهواء.

فالتوحيد -الذي هو رأس الأمر- هو الأصل في تعظيم الله تعالىٰ، فالله أعظم من أن يعبد معه غيره، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»[1].

ذكر الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة تعظيم الله فقال: «وهو أن لا تجعل دونه سببا أو ترىٰ عليه حقا»[2]. قال ابن القيِّم معلقًاعلىٰ هذا الكلام: «هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والتى قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيه، والأولىٰ: تتضمن تعظيم أمره، وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء:

أحدها: ألا تجعل دونه سببا، أي: لا تجعل للوصلة إليه سببا غيره، بل هو الذي يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلىٰ الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه.

الثاني: ألا يرىٰ عليه حقا أي لا ترىٰ لأحد من الخلق -لا لك ولا لغيرك - حقا علىٰ الله، بل الحق لله علىٰ خلقه، وفي أثر إسرائيلي أن داود عليه السلام قال: يا رب، بحق آبائي عليك، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، أي حق لآبائك علي؟ ألست أنا الذي هديتهم ومننت عليهم واصطفيتهم، ولي الحق عليهم؟!

وأما حقوق العبيد علىٰ الله تعالىٰ: من إثابته لمطيعهم، وتوبته علىٰ تائبهم، وإجابتهم لسائلهم، فتلك حقوق أحقها الله سبحانه علىٰ نفسه، بحكم وعده وإحسانه، لا أنها حقوق أحقوها هم عليه فالحق في الحقيقة لله علىٰ عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه بجوده وبره وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه. هذا قول أهل التوفيق والبصائر»[3].

ومما قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن منزلة التعظيم أيضا: «وهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيما وإجلالا، وقد

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٣)، تعظيم الله (ص ١٥).

(٢) منازل السائرين (٨٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠).

ذم الله تعالىٰ من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا ترجون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: ما لكم لا تعظِّمون الله حقّ عظمته؟ وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلّىٰ أحدهما عن الآخر فسدت[1].

وقال الزَّجاج رَحِمَهُ اللَّهُ «العظيم المعظم في صفة الله تعالىٰ يفيد عظم الشأن والسلطان، وليس المراد به وصفه بعظم الأجزاء؛ لأن ذلك من صفات المخلوقين تعالىٰ الله عن ذلك علوا»[2].

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٣).

(٢) تفسير أسماء الله (٤٦).

تعظيم الله عند النحاة

تضمنت كتب النحويين علائم لتعظيم الله جديرة بالتأمل والنظر، فهي تدعو إلىٰ إجلال الله وتنزيهه عما لا يليق به، كما تحث علىٰ حميد الأخلاق والخصال، وتؤكد أن العلم والدين شيء واحد، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، بمعنىٰ أنه يجب الجمع بين التربية والتعليم، وبين تلقي العلم وأخذ الهَدْي؛ لأن العلم النافع هو ما أورث صاحبه الأدب والخشية ومكارم الأخلاق، وما خلا من ذلك ففتنة وفساد كبير، وقد كان أئمتنا من النحاة داعين إلىٰ ذلك حاثين عليه. ونحاول فيما يلي رصد بعض من تلك العلائم.

تعظيم النحاة في المقدمات:

المضامين الإيمانية القائمة علىٰ تعظيم الله وإجلاله لدىٰ النحاة يلمسها القارئ في متن القواعد وصلب التحليلات والشروح، ومنها ما هو علىٰ هامش تلك القواعد، وهو ما يحسن تسميته بالمقدمات التعظيمية التي نخصص لها الأسطر الآتية:

١ - من إعراب يفسد المعنىٰ:

إن القاعدة النّحوية المستقلّة قد تتخلف، ولا تنهض بإعراب القرآن؛ لأن بعض وجوه الإعراب الجائزة قد تؤدِّي إلىٰ إفساد النَّظم. والنَّظم هو ميزة هذا الكلام المعجز، وهو هادٍ يقود النَّحو، ويرشده، ويحدِّد له وجهًا من الإعراب بعيدًا عن أيّ إغراب[١]، وأي: إخلال في هذا يفضي إلىٰ فساد في المعنىٰ، وهذا ما حذَّروا منه، يقول الخطابي: «وممّا يجب أن يراعىٰ في الأدعية: الإعراب، الذي هو عماد الكلام، وبه يستقيم المعنىٰ، وبعدمه يختلّ ويفسد، وربما انقلب المعنىٰ باللَّحن حتىٰ يصير كالكفر إن اعتقده صاحبُه، كدُعاءِ من دعا، أو قراءة من قرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بتخفيف الياء من (إيَّاك)؛ فإن (الإيا): ضياء الشَّمس، فيصير كأنَّه يقول: شمسك نعبد، وهذا كفر»[٢].

وقد فقه النُّحاة أنهم داخلون بين الله وعباده، فراحوا يعبِّرون عن وجلهم من أن يسقطوا بتأويلهم النَّحوي حدًّا من حدود الله، فعبّر عنهم في ذلك الهمداني بقوله: «نعوذ بالله من إعراب يؤدِّي إلىٰ فساد المعنىٰ»[٣].

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (٢٥٥).

(٢) شان الدعاء (١٩).

(٣) الفريد في إعراب القران المجيد (٨٠).

٢- الإخلاص:

هناك نوع تواشج وتلازم بين النِّية واللُّغة؛ ذلك أنَّ النِّية لها أولوية في التُّراث النَّحوي، يكفي أنَّ النِّية كانت وراء ذلك الحفاظ علىٰ لغة القرآن من تسلل اللّحن إليها.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أسماء المصنفات الأولىٰ في علم النَّحو يستهلها أصحابها بما ينبئ عن جناب التوحيد والإخلاص لله فيما يرومون وتلك أمارات وقرائن علىٰ استحضارهم جانب الإخلاص بدءًا ومختتمًا؛ تذكر لنا كتب التَّراجم أنَّ الخليل بن أحمد لمَّا أراد وضع علم العروض سأل اللهَ وهو في مكَّة أن يؤتيه علمًا لم يُؤتَه أحدٌ قبله يكون نبراسًا يهتدي به من رام ضبط الشِّعر العربي وزنًا وقافيةً، فكان ما تمنىٰ وأراد، وفتح الله عليه بعلم سمَّاه (علم العروض) تيمنًا ببلد الله الحرام (مكَّة).

كما جاء عن سيبويه أنَّه لم يُسمِّ مؤلفه النَّحوي البديع الذي عُدّ أوَّل مصنَّف نحويٍّ لم يسبقه إليه أحدٌ، فما كان من تلامذته إلَّا أن عملوا علىٰ نشر علمه، وإذاعته بين الأنام، فوضعوا له اسم (الكتاب) تيمنًا بكتاب الله، فكان له القبول بين النَّاس، والإقبال منهم عليه. وفي ذلك دليلٌ علىٰ إخلاص سيبويه، وصدقه مع الله في وضع هذا المصنَّف.

كما أنَّ ابن جني رَحِمَهُ اللَّهُ سمَّىٰ كتابه في تخريج القراءات الشَّاذة بـ(المحتسب)، وفي هذا إشارة إلىٰ أنّه أراد أن ينويه احتسابًا لله، وادَّخارا لمثوبته يوم يلقاه، ويُقاس علىٰ ذلك تلك المتون والشُّروح النَّحوية التي كتب الله لها الذُّيوع والانتشار دون غيرها، ولا يملك النَّاظر إلَّا أن يقرّ بوجود سِرٍّ وراء ذلك، منشؤه تعظيمُ الله في نفوس هؤلاء الأفذاذ.

٣- الاستعانة بالله:

من السِّمات البارزة في مصنفات النُّحاة التَّبرؤ من حولهم وقوتهم، واستهلالهم بالاستعانة بالله فيما يخوضون فيه، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في مطلع ألفيته: «وأستعين الله في ألفيه»، حيث أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: وأستعينه في ألفية؛ لأنَّ باب الدّعاء ينبغي فيه البسط والإطناب، ثم إنَّه لمَّا طال الفصل بين قوله: «أحمدُ ربي»، و«أستعين الله»؛ حَسُن أن يظهر في موضع الإضمار.

وثَمَّ شيءٌ ثالث، وهو أنَّه لمَّا قال: «مُصليًّا علىٰ النَّبيِّ»، لو قال: (وأستعينه) لتوهم الواهم أنَّه يستعين بالنَّبيِّ ﷺ، فلهذه الأسباب الثلاثة؛ أظهر رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال: «أستعين الله»، ولم يقل: أستعينه، ومعنىٰ أستعين: أطلبُ العونَ، كقول القائل: أستغفر الله، أي: أطلب المغفرة.

وما ذهب إليه المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ- من بدء العمل بهذه الألفية مصحوبًا بطلب العون من الله مطابقٌ تمام المطابقة لقوله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»[1]، فابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ استعان بالله في نظم الألفية، ومن استعان بالله ملتجئًا إليه، صادقًا في قصده؛ فإنَّ الله تعالىٰ يعينه بلا ريب.

ولا يليق بالمسلم أن يعتمد علىٰ ما أعطاه الله من القوّة، وينسىٰ خالقَه الذي بيده التَّوفيق والتَّسديد، وهذا ما كان لابن مالك؛ فسِمَات التَّوفيق والفتح والتَّسديد تبدو بارزة في منظومته الفريدة البديعة التي حوت مقاصد النَّحو والصَّرف وأهمَّ مسائلهما، يلحظ ذلك كلّ مَن كان له مصاحبة لها.

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢).

تعظيمهم لله في المصطلحات النحوية

من مظاهر تعظيم الله عند النُّحاة، وأدبهم الرَّفيع معه: ما وضعوه من مصطلحات خاصَّة بإعراب الجمل والتَّراكيب، والتى لها ارتباطٌ وعلاقةٌ بالذَّات الإلهية، وبكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتىٰ إنَّ بعض النُّحاة زهدوا في بعض المصطلحات الإعرابية، واستبدلوا بها أخرىٰ مراعاةً لأدبهم مع الله سبحانه. وسعوا في تعاطيهم مع القواعد النَّحوية إلىٰ التَّعامل بدقَّة مع المصطلحات النَّحوية، وجعلوا مراعاة ذلك من آكد المهمات.

وهم لم يأتوا في ذلك ببدع من الأمر، بل لهم في صنيع النَّبىِّ ﷺ أسوة وقدوة، فلمَّا سمع ﷺ عبارة: «ما شاء الله وشئت»، ولمَّا سمع عبارة: «نستشفع بالله إليك، ونستشفع بك إلىٰ الله»= لم يرتض ذلك، وأنكره. وكان يُغيِّر الأسماء التي فيها معانٍ مخالفة للشَّريعة.

وكثيرةٌ هي المصطلحاتُ النَّحوية التي سلك فيها النُّحاة مسلكَ التَّعظيم والتَّبجيل، نذكر بعضًا منها، وهي الأكثر شيوعًا في كتب الإعراب.

١- ما لم يسم فاعله:

النَّاظر في كتب النَّحو والإعراب يلحظ أنَّهم يقولون: (باب ما لم يسم فاعله)، والمتأخِّرون منهم يقولون: (باب المبني للمجهول)، وفي ذلك نكتة لطيفة من الأدب الرَّفيع انتبه له السَّلف دون الخلف، فهم يقرِّرون أنَّ المُعْرِب لمثل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن]، لا يقول في إعراب ﴿أُوحِيَ﴾ بأنّها فعل مبنيٌ للمجهول، وكيف يستطيع المؤمن أن يصف الله بالمجهول، هذا هو سِرُّ اصطلاح السَّلف في قولهم: «ما لم يسم فاعله»[1].

٢- منصوب علىٰ التعظيم:

من ملامح التَّنزيه الجميل الذي لهجت به ألسنة المُعْربين ما استحدثه ابنُ هشام رَحِمَهُ اللَّهُ، وتبعه في ذلك الأزهريُّ والآثاريُّ -رحمهما الله- من مصطلحات إعراب الأدب مع الله، وتبعهم في ذلك لفيفٌ من مفسِّري القرآن ومعربيه، كابن عادل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ، ونخصُّ بالذِّكر هنا استعمالهم لمصطلح (منصوبٌ علىٰ التَّعظيم) بدلًا من مفعول به. كلّ ذلك تأدُّبًا مع اسم الجلالة، وتنزيهًا لله عن وصف المفعول به، لما فيها من سوء الأدب مع الله، وذلك كما في

(١) مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات ١٣٢.

قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، يعرب لفظ الجلالة هنا بأنَّه منصوبٌ علىٰ التَّعظيم لا مفعول به، ومثل كذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢]، قال ابن عادل الحنبليُّ، «قيل: تقديره: لا يضلُّ الكتابَ ربِّي، فيكون في ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ ضميرٌ يعود علىٰ الكتاب، و﴿رَبِّي﴾ منصوب علىٰ التعظيم، وكان الأصل (عن ربِّي)، فحذف الحرف اتِّساعًا»(١). وعلىٰ هذا المنوال سار المعربون المعاصرون من أمثال الدَّرويش وصافي في إعرابيهما للقرآن الكريم.

٣- فعل الطلب:

من مسالك تعظيم الله عند النُّحاة استعمال عبارة (فعل الطَّلب) في الدُّعاء أو السُّؤال، بدلًا من صيغة: (فعل أمر) إذا جاءت في الدُّعاء، قال الصَّبان: «قوله: فعل الأمر، قال البعض تبعًا لشيخنا: الأولَىٰ (فعل الطَّلب) ليشمل الدُّعاء»(٢).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، تعرب: ﴿بَٰعِدْ﴾ هنا بأنَّها فعل طلب، لا فعل أمر(٣)، تنزيهًا لله عن توجيه الأمر إليه، ولزوم الأدب معه.

٤- البدل المطابق:

وعلىٰ المنوال نفسه استدعىٰ تعظيم الله وتنزيهه عمَّا لا يليق به من النُّحاة أن يطلقوا علىٰ لفظ الجلالة -إذا وقع موقع بدل الكلِّ من الكلِّ- لقب (البدل المطابق)، وهو «بدل الشَّيء ممَّا هو طبق معناه»(٤)، وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم]، فيمن قرأ بالجرِّ(٥)؛ فـ ﴿ٱللَّهِ﴾ بدل من ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، فهي بناءً علىٰ ما مرَّ: بدلٌ مطابقٌ، ولا يقال فيه: بدلُ كلٍّ من كلّ، وإنَّما لم يقل ذلك؛ لأنَّ الكلَّ إنَّما يُطلق علىٰ ذي أجزاء، وذلك ممتنعٌ هنا؛ إذ الله منزَّهٌ عن التَّجزئة.

---

(١) اللباب (١٣/ ٢٧٢).
(٢) حاشية الصبان (٣/ ٣١٤).
(٣) اللباب (١٦/ ٤٩).
(٤) أوضح المسالك (٣/ ٤٠١).
(٥) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾، وقرأ الباقون ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ بالخفض، قرأ يعقوبُ -إذا وصل- ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾ خفض، وإذا وقف علىٰ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، وابتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ رفع.

٥- عسىٰ ولعل وقد:

سعىٰ النُّحاة -وهم مستحضرون لعظمة الرَّبِّ جلَّ وعلا- إلىٰ التَّغيير في مصطلحات بعض الحروف الدَّالَّة علىٰ التَّرجي والتَّوقُّع، فهم يقولون -مثلًا-: (عسىٰ) من الله واجبة، و(لعل) من الله واجبة[١]، قال البقاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه العبارة: «ومعناه: أنَّه مع أنَّ له أن يفعل ما يشاء لا يفعل إلَّا ما يقتضيه الحكمة علىٰ ما يستصوبه منهاج العقل السَّليم»[٢].

وقال الجوهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «(عسىٰ) من الله واجبة، لاستحالة الطَّمع والإشفاق عليه تعالىٰ؛ إذ لا يكونان إلَّا في المجهول»[٣].

وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: «و(عسىٰ) من الله حقٌّ»[٤].

وقال في (اللُّباب): «اتفق المفسرون علىٰ أنَّ كلمة (عسىٰ) من الله واجب، قال أهلُ المعاني: لأنَّه لفظٌ يفيد الإطماع، ومن أطمع إنسانًا في شيءٍ، ثمَّ حرَّمه كان عارًّا، والله أكرم من أن يُطمِع واحدًا في شيءٍ، ثمَّ لا يعطيه»[٥].

وذلك قوله تعالىٰ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤]، فهو إطماع. والإطماع من الله واجبٌ، فـ(لعل) إذا جاءت من الله تفيد الوقوع لا التَّوقُّع، و(عسىٰ) تفيد التَّحقيق لا التَّرجي؛ لأنَّ المخلوق هو الذي يتوقَّع؛ لقصور علمه. أمَّا الخالق فلا يتوقَّع ولا يترجَّىٰ، بل هو يعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ٩٩﴾ [النساء]، (عسىٰ) هنا تفيد التَّحقيق والوجوب[٦]، وحكمة مجيئها بصيغة التَّرجي لئلا يُهْلِكَ الإنسانَ الأملُ، فكأنَّ المعنىٰ: لو تاب الإنسان أو كان معذورًا عسىٰ الله أن يعفوَ عنه، حتىٰ لا يهلكك الأملُ، فتعتمد علىٰ إنجاز الله تعالىٰ لك ما وعدك به.

---

(١) معاني القران للنحاس (٢/ ١٤٥).
(٢) نظم الدرر (٢/ ٤٩٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٦).
(٤) تفسير بن كثير (٤/ ١٦).
(٥) اللباب (١٢/ ٣٦٣).
(٦) معاني القران للنحاس (٢/ ١٧٤).

والكلام نفسه الذي كان في (عسىٰ، ولعل) ثابتٌ لـ (قد)، بمعنىٰ: أنَّها إذا دخلت علىٰ الفعل المضارع تفيدُ احتمال حدوثه، ولكنَّه إذا جاءت في حقِّ الله فهي تفيد تحقُّق الأمر، كما قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب]، معناه: تأكيد علم الله.

وقد عقد الآثاريُّ في خاتمة (ألفيته) فصلًا تحت عنوان (خاتمة الفصول)، تحدَّث عن الأدب في الإعراب مع الله تعالىٰ، وأشار إلىٰ ما أوردناه، فقال:

خاتمةُ الفصــول: إعرابُ الأدبْ ... مع الإلـهِ، وهو بعضُ ما وجبْ
فـالربُّ مســؤولٌ بـأفعـال الطلبْ ... كـ (اغفرْ لنا)، والعبدُ بالأمر انتدِب
وفي (ســألتُ الله) في التَّعليمِ ... تقولُ: (منصــوبٌ علىٰ التَّعظيمِ)
فقسْ علىٰ هـذا، ووقعْ بلعلْ ... منه، وحققْ بعسَــىٰ تُعطَ الأملْ
بـاللهِ طالـبٌ ومطلـوبٌ عُلـمْ ... (قد يعلمُ الله) بمعنىٰ: قد عَلِمْ

٦- حرف الصِّلة:

تعظيمُ الله وتنزيهه عمَّا لا يليق به استدعىٰ من النُّحاة أن يجنِّبوا كلامَه كلَّ ما فيه سوء أدب معه، ومن ذلك التَّورُع من القول في حرف من القرآن: إنَّه حرفٌ زائدٌ، إجلالًا لكلام الله، واحترامًا له، وملازمة الأدب معه تعالىٰ، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فالكاف صِلة، أو حرفُ توكيدٍ، قال ابن هشام: «وينبغي أن يجتنب المُعرِب أن يقول في حرفٍ في كتاب الله: إنَّه زائدٌ؛ لأنَّه يسبق إلىٰ الأذهان أنَّ الزَّائد هو الذي لا معنىٰ له، وكلامه -سبحانه- مُنزَّهٌ عن ذلك»(١)، وقال: «وكثيرٌ من المتقدمين يُسمُّون الزَّائد صِلةً، وبعضهم يُسمِّيه مؤكِّدًا، وبعضهم يُسمِّيه لغوًا، لكنَّ اجتناب هذه العبارةِ [أي: الأخيرة] في التَّنزيل واجبٌ؛ لأنَّه يتبادر إلىٰ الأذهان من اللَّغوِ الباطلُ، وكلامُ الله -تعال- مُنزَّهٌ عن ذلك»(٢).

وهذا التَّأدُّب مع كلام الله المؤسَّس علىٰ تعظيم صاحب الكلام -سبحانه- يدفع باتجاه تنزيه القرآن عن الزِّيادة، بَيد أنَّ هذه الزِّيادة هي من حيث الإعراب، أمَّا من حيث المعنىٰ؛ فهو مفيدٌ بلا ريب، وليس في القرآن زيادةٌ دون معنىٰ.

---

(١) الإعراب عن قواعد الإعراب (١٠٨).

(٢) المصدر نفسه (١٠٩).

والذي أثار النِّقاش في هذه المسألة هو احترازُ بعض العلماء عن ذكر لفظة (زائد، أو: زائدة) في القرآن الكريم تنزيهًا لكتاب الله -عزَّ وجل-، وتقديسًا له، ورغبةً عن وسمه بما لا يليق.

ومن ثَمَّ أطلق عليه بعضهم: (الإقحام، والصِلة، والتَّوكيد) من باب التَّأدُّب؛ لأنَّه قد يتبادر إلىٰ أذهان العامَّة من النَّاس أنَّ هذه الحروف أو الكلمات وجودها كعدمها. وهذا يُسبِّب طعنًا في القرآن الكريم؛ إذ كيف يكون حرفٌ زائدًا في النَّصِّ القرآني بلا معنىٰ أو فائدة، وأنَّ حذفه لا يضرُّ في سلامة النَّصِّ القرآنيِّ.

فمن هذا الباب تجنَّب بعضُ العلماء إطلاقَ هذه اللّفظة علىٰ الآيات القرآنية تأدُّبًا مع كلام الله، مع يقينهم أنَّ الزِّيادة هنا اصطلاحية تستقيم معها صِحَّة بناء العبارة، كما قال الزَّركشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مرادهم أنَّ الكلام لا يختلّ معناه بحذفها، لا أنَّه لا فائدة فيه أصلًا، فإنَّ ذلك لا يحتمل من متكلِّم فضلًا عن كلام الحكيم»[(١)]، وقال: «ومعنىٰ كونه زائدًا أنَّ أصل المعنىٰ حاصلٌ بدونه دون التَّأكيد، فبوجوده حصلت فائدة التَّأكيد، والواضع الحكيم لا يضع الشَّيء إلَّا لفائدة»[(٢)].

ولكن يُحسب للنُّحاة هذا المسلك في الأدب والتَّعظيم، وهو ما عبَّر عنه الزَّواويُّ بقوله:

وَلْتَجْتَنِبْ يَا صَاحِ أَنْ تَقولَ فِي ... حرْفٍ مِنَ القُرآنِ زَائدٌ تَفِي
إِذْ تَسبقُ الأذْهانُ لِلإهمالِ ... وَهْو عَلىٰ القُرآنِ ذُو اسْتِحَالِ
وَإِنَّما الزَّائدُ مَا دَلَّ عَلىٰ ... مُجَرَّدِ التَّوْكِيدِ لَا مَا أُهْمِلَا

(١) البرهان (١/ ٣٥٠).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٤).

التعامل مع لفظ الجلالة

حظي لفظ الجلالة في كلام النَّحويين بعنايةٍ خاصة، واهتمام عن غيره من الأسماء الأعلام، فكان له من الخواصّ ما لا يشاركه فيها غيره.

وهذه الخواص جاءت في أبواب متفرقة نحوية، فلفظ الجلالة (الله): «اسمٌ مختصٌّ بالبارئ تعالىٰ، وهو اسم الله الأَعظم عند جماعة من عظماء الأمَّة وأعلام الأئمة»[1].

وفيما يأتي طرفٌ من تلك الخصائص والسِّمات:

١ - التَّعبير بلفظ الاسم الكريم:

لتلك القداسة والرِّفعة لذلك الاسم الجليل كان النُّحاة متأدِّبين جدًّا في التَّعامل معه عند صياغتهم للقواعد، من ذلك: تعبيرهم بلفظ (الاسم الكريم)، أو لفظ الجلالة. وذلك تأدُّبًا مع البارئ سبحانه؛ لأنَّ التعبير بلفظ (الله) قد يراد به المسمَّىٰ لا هذا اللفظ، فإذا قيل: الاسم الكريم أو لفظ الجلالة كان أجود وأليق مع مقتضيات التَّعظيم، ونماذج ذلك كثيرة، منها: قول صاحب (اللُّباب): «وأيضا: فإنَّ صفاته الحُسنىٰ لا بدّ لها من موصوف بها تجري عليه، فلو جعلناها كلّها صفات بقيت غير جارية علىٰ اسم موصوف بها، وليس فيما عدا الجلالة خلاف في كونه صفة، فتعيَّن أن تكون الجلالة اسمًا لا صفة، والقول في هذا الاسم الكريم يحتمل الإطالة، وهذا القدر كاف»[2].

وفي باب المبتدإ والخبر نجد ابنَ عقيل يصف لفظ الجلالة بالاسم الكريم، فيقول: «كقوله: (نطقي الله حسبي)، فـ(نطقي) مبتدأ أول، والاسم الكريم مبتدأ ثان، و(حسبي) خبرٌ عن المبتدإ الثاني، والمبتدأ الثَّاني وخبره خبرٌ عن المبتدأ الأوَّل. واستغنىٰ عن الرَّابط؛ لأنَّ قولك: (الله حسبي) هو معنىٰ نطقي»[3]، وقال: «وتخبر عن الاسم الكريم من قولك (وقىٰ الله البطل)، فتقول: الواقي البطلَ اللهُ»[4].

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٢/ ١٢).

(٢) اللباب (١/ ١٤٣).

(٣) شرح ابن عقيل (١/ ٢٠٤).

(٤) شرح ابن عقيل (٤/ ٦٥). وانظر نحوًا من ذلك في معترك الأقران (٣/ ٤٧٦).

٢- **العطف:**

التزم النُّحاة في التَّعامل مع لفظ الجلالة الحيطة والحذر، وأحاطوه بما يليق به من سياج القداسة والعظمة، ونحو ذلكم ما يندرج في إطار أدب العبارة مع الله تعالىٰ ومع كتابه؛ ولا شكَّ أنَّ ذلك من آكد الواجبات، وأعظم المهمات التي يجب أن يراعيها المُعرِب لكلام الله.

وفي السُّنَّة النَّبوية نماذجُ تعليميةٌ لهذا الأدب، من ذلك: ما ورد من أنَّه لمَّا سمع عبارة (ما شاء الله وشئت)، لم يرتض ذلك، كما كان يُغيِّر الأسماءَ التي فيها معاني مخالفة للشَّريعة.

أمَّا نماذج النُّحاة في هذا الأدب، فمنها: ما أورده صاحب (اللُّباب) في قوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، «فأفرده بالذِّكر ثمَّ قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا تعليمٌ من الله لنا الأدبّ، ولذلك رُوي أنَّ رجلًا قال بحضرة الرَّسول ﷺ: (من أطاع الله والرسول فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوىٰ)، فقال: «**بئسَ الخطيبُ أنتَ، هَلَّا قلتَ: مَن عصىٰ اللهَ وعصىٰ رسولَه**»، أو لفظٌ هذا معناه؛ وذلك لأنَّ الجمع بينهما في اللّفظ يوهم نوعَ مناسبة ومجانسة، والله -تعالىٰ- منزَّهٌ عن ذلك»[(١)].

كما أننا نجد من ملامح التَّأدُّب مع الله: أنَّ عودَ الضَّمير مثنًىٰ علىٰ المعطوف عليه والمعطوف أمرٌ جائزٌ في اللُّغة، تقول: (أطع محمّدًا وأبا بكر، واسمع لهما)، ولكنَّ ذلك غير جائز مع الله تعالىٰ البتَّة، فلا يقال: (أطع الله ورسوله واسمع لهما)؛ وذلك للفصل بين المقامين، مقام الألوهية ومقام النبوة، كما في الآية السالفة، كذلك لم يرد الجمع بين الله وأحد من خلقه في ضمير المثنىٰ أو الجمع فقط تنزيها له سبحانه.

٣- **خصائص لفظ الجلالة في النِّداء:**

من القواعد النَّحوية المقرَّرة جواز حذف أداة النِّداء مع المنادىٰ؛ لأنَّ النِّداء كثير علىٰ ألسنة المتكلمين؛ ولحاجتهم الماسَّة إليه في خطاباتهم اليومية، والشَّواهد علىٰ ذلك كثيرة، إلَّا أنَّ ذلك مع لفظ الجلالة ممنوعٌ، وذلك نحو: (يا الله)، فيتعيَّن مناداته بحرف النِّداء (يا) دون غيره من حروف النِّداء السِّتَّة، وهذا الحرف هو أمُّ الباب؛ إذ يُنادىٰ به البعيد والقريب. أمَّا غيره من حروف النِّداء فإمَّا أن يُنادىٰ به البعيد أو القريب فحسب.

---

(١) اللباب (٦/ ٤٥٠).

وتجدر الإشارة إلىٰ أنَّ نداء لفظ الجلالة بهذا الحرف فيه جمعٌ بين التَّنزيه والعلو والسُّمو والقرب، رغم كونه -سبحانه- أقرب للدَّاعي إذا دعاه من حبل الوريد، فكان الأجدر نداءه بما يفيد المناجاة قُربًا لا المناداة بُعدًا، وإنَّما نودي بهذا الحرف احترازًا وزيادةَ اكتراث بلفظ الجلالة (الله)، ولهذا يُعوَّض عن حرف النِّداء بميم مشدَّدة عند حذفه في (اللَّهمَّ).

وفيما مرَّ ذِكرُه يقول ابنُ معطٍ في (ألفيته)[(١)]:

وأحرفُ النِّداءِ قد تنحذفُ   كمثل ربَّنا ومثل يوسفُ
إلَّا عن اسم الله والإشارَةْ   فالحذفُ فيهما احذرْ اختصارَهْ
لو قلتَ هذا في النِّدا واللهْ   وشِبْهِ هَذا وقعَ اشْتِبَاهْ

ويتَّصل بهذا البحث: أنَّ نداء الرَّبِّ قد كثر حذف (يا) منه في القرآن، كقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ وعلة ذلك أن في حذف (يا) من نداء الرَّبِّ تعالىٰ معنىٰ التَّعظيم له والتَّنزيه؛ وذلك أنَّ النِّداء فيه طرفٌ من معنىٰ الأمر؛ لأنَّك إذا قلتَ: (يا زيد)، فمعناه (تعال يا زيد، أدعوك يا زيد)، فحذفت (يا) من نداء الرَّبِّ ليزولَ معنىٰ الأمر وينقص؛ لأنَّ (يا) تؤكِّده وتظهر معناه، وكان في حذف ياء النِّداء التَّعظيم والإجلال والتَّنزيه للرَّبِّ، فكثر حذفُها في القرآن والكلام في نداء الرَّبِّ لذلك المعنىٰ»[(٢)].

- **لزوم (أل) للفظ الجلالة مع يا النِّداء:**

يقرِّر النُّحاة عدم جواز الجمع بين ياء النِّداء وأل التعريف إلَّا مع لفظ الجلالة، وما سُمِّي به من الجمل، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وباضطرارٍ خَصَّ جَمْعُ يا وأَلْ   إلَّا مع (الله) ومحكي الجُمَل

وإنَّما امتنع ذلك؛ لأنَّه يُجْمَع بين تعريف النِّداء وتعريف العلمية، وإذا لم يجز الجمع بين تعريف النِّداء وتعريف العلمية فَلأن لا يجوز الجمعُ بين تعريف النِّداء وتعريف الألف واللام أَوْلَىٰ؛ وذلك لأنَّ تعريف النِّداء بعلامة لفظية، وتعريف العلمية ليس بعلامة لفظية، وتعريف الألف واللام بعلامة لفظية، كما أنَّ تعريف النِّداء بعلامة لفظية[(٣)].

---

(١) ألفية ابن معط (٥٢).

(٢) مشكل إعراب القران (١/ ٢٨٥).

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٢٧٦).

ولكنَّهم بحثوا في أسباب اختصاص اسم الله بهذه الخاصية، فكان ممَّا قالوه -وممّا له علاقة ببحثنا- قول بعضهم: «إنَّما لزمت (أل) هذا الاسم الكريم؛ لأنَّه اسمٌ له خاصٌّ له، لم يُسمَّ به غيره، فهو علم مرتجل، وليس بمشتقٍّ، فلزمته (أل)، حتىٰ صارت من نفس الكلمة، ولم تسقط عنه بحال، فجاز اجتماعها مع حرف النِّداء كسائر الأسماء الأعلام»[(١)].

وقيل: سبب ذلك هو كثرة استعمال هذا الاسم الكريم؛ إذ هو أشهر أسمائه، وأكثرها دَورًا علىٰ الألسنة، ونداء الله ضرورةٌ؛ لأنَّه منتهىٰ كلِّ رغبة، وبالخلق أجمعين الحاجة الشَّديدة إلىٰ ندائه ودعائه بهذا الاسم الكريم، فجاز فيه ما لا يجوز في غيره[(٢)].

وقيل: اسم الله تعالىٰ لا يجري مجرىٰ غيره ممّا فيه (أل)، فلا يجوز أن يقال فيه: (يا أيُّها الله) ولا (يا هذا الله)؛ لأنَّ أسماء الله توقيفية، وإطلاق ذلك يتوقَّف علىٰ الإذن، ولم يرد إذن شرعي فيه؛ أو لكون النِّداء فيه أكثر من غيره، فخفّف بحذف الوصلة أو لكراهة التَّوصل إلىٰ اسم الله تعالىٰ بالمبهمات؛ لأن (أيا) إنّما توصف بأسماء الأجناس، والله تعالىٰ واحدٌ وليس بجنس، ولو قيل: (يا لاه) أو (يا إله) لغير الاسم، ولزال منه ما قصد به التَّعظيم[(٣)]، كما قيل: إنَّ اسم الله تعالىٰ جرىٰ مجرىٰ الأسماء الأعلام، فكما يجوز دخول حرف النِّداء علىٰ سائر الأعلام، فكذلك يجوز مع اسم الله تعالىٰ[(٤)].

ويتَّصل بهذا البحث حديثُ النُّحاة عن الإنقاص من لفظ الجلالة، حيث كرهوا قول بعضهم: (يَلَّه) بحذف ألف (يا)، والهمزة، وألف لفظ الجلالة. حكىٰ ذلك الكسائيُّ، وهذه الصُّورة مستكرهة، نقل عن الخليل بن أحمد أنَّ إنقاص شيء من لفظ الجلالة في النِّداء مكروهٌ عند العرب، ففي (تهذيب اللغة): «قال ابن شُمَيل: سمعتُ الخليلَ يقول: يكرهون أن ينقصوا من هذا الاسم شيئًا، يا الله، أي: لا يقولون: (يَلَّه)»[(٥)].

وفي حديث النُّحاة عن (اللَّهمَّ) وما جرىٰ لها من تعويض الياء المحذوفة بالميم يقول ابن إياز: «وفي هذا التَّعويض محافظة علىٰ سلامة هذا الاسم المُعَظَّم -جلَّ مسمَّاه- وصيانته عن الحذف،

---

(١) شرح ألفية ابن معط (٢/ ١٠٤٣).
(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٢٧٨). وانظر: الخواص النحوية للفظ الجلالة (١٠٠).
(٣) النجم الثاقب (١/ ٣٣٣).
(٤) الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٢٧٨).
(٥) تهذيب اللغة (٦/ ٢٢٥).

ألا ترىٰ أنَّك لو حذفتَ اللام لحرف النِّداء لكان ذلك نقصًا، ولو دخل عليه وهي فيه لكان ذلك مخالفًا للأصول، فألزموا التَّعويض عند حذف حرف النِّداء ليكون ذلك جبرًا عمَّا أسقط»[١].

ومما قيل في هذا أيضًا: «إنَّ زيادة الميم في الاسم الكريم من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره؛ لأنَّ هذا الاسم قد اختُصّ بأشياء خارجة عن القياس، منها هذا[٢].

وقد جاء في تفسير ميم (اللَّهمَّ) قولان:

أحدهما: أنَّ الميم علامة الجمع، كقولك في جمع (عليه: عليهم)، فصارت الميم في هذا الموضع بمنزلة الواو الدَّالَّة علىٰ الجمع في نحو (قام، وقاموا)، فلمَّا كانت كذلك؛ زيدت في آخر اسم الله تعالىٰ؛ لتُشعر وتُؤذِن بأنَّ هذا الاسم قد اجتمعت فيه أسماء الله كلُّها، فإذا قال الدَّاعي: (اللَّهمَّ)؛ فكأنَّه قال:(يا الله) الذي له الأسماء الحسنىٰ. فالميم علامة جمع الأسماء، وفُتِحَت لتكون بإزاء الفتحة في قولك: (مسلمون)، وشُدِّدت لتكون بالتَّشديد معادلة للحرفين المزيدين في قولك: (مسلمين)[٣]. وقد جاء ما يؤيِّد هذا التَّفسير للميم، فقد رُوي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «(اللَّهمَّ) مجمع الدَّعاء»، وقال أبو رجاء العُطارديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الميم في قولك: (اللَّهمَّ) فيها جماعة سبعين اسمًا من أسماء الله تعالىٰ»، وقال النَّضر بن شُمَيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قال (اللَّهمَّ)؛ فقد دعاه بجميع أسمائه»[٤]. ولأجل استغراق الميم في (اللَّهمَّ) لجميع أسماء الله تعالىٰ وصفاته؛ فلا يجوز أن يوصف؛ لأنّها قد اجتمعت فيها، واحتجّ بذلك لسيبويه الذي لا يُجيز وصف (اللَّهمَّ).

والآخر: أنَّ الميم زيدت في هذا الاسم الكريم للتَّعظيم والتَّفخيم، كزيادتها في (زرقم)، و(ستهم)، قال بعضهم: وهذا غير خارج عن مذهب سيبويه؛ لأنَّه لا يمتنع أن تكون الميم للتَّفخيم والتَّعظيم، وإن كانت عِوَضًا عن حرف النِّداء[٥].

كلّ ما ذُكِر من توجيهات نحوية كان التَّركيز فيها علىٰ ما تفوح منه رائحة التَّعظيم لله، ويضوع منه شذا التَّبجيل له عزّ وجلّ، وهو أمرٌ معنويٌ، لا لفظيٌ.

---

(١) المحصول في شرح الفصول (٢/ ٦٨١).
(٢) المقاصد الشافية (٥/ ٢٩٣).
(٣) انظر المحصول في شرح الفصول (٢/ ٦٨١). وانظر: الخواص النحوية للفظ الجلالة (١١٢).
(٤) انظر المحصول في شرح الفصول (٢/ ٦٨٣).
(٥) انظر الخواص النحوية للفظ الجلالة (١١٢).

٤- دخول التَّاء عليه في القسم:

من السِّمات التي اختُصَّ بها لفظ الجلالة دون غيره من أسماء الله الحُسنىٰ: دخول تاء القسم عليه[١]، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف]، وقد حاول النُّحاة التماس الحِكَم من ذلك، فذهب بعضهم إلىٰ أنَّ ذلك راجعٌ لشرف هذا الاسم في النُّفوس، وأنَّه أعظم أسمائه وأشرفها، أو لكثرة استعمالهم إيَّاه، وهم إذا أكثروا استعمال الشَّيء استجازوا فيه ما لا يستجيزونه فيما يقلّ استعماله[٢].

٥- قطع همزة الوصل من لفظ الجلالة في النِّداء والقسم:

من خصائص لفظ الجلالة جواز قطع همزة الوصل الدَّالَّة علىٰ اللَّام[٣]، ذكروا في ذلك توجيهات وتعليلات، منها: ما ذكره ابن برهان العكبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض النُّحاة: أنَّ الهمزة قُطِعت إفرادًا لهذا الاسم بحكم لا يكون لغيره؛ ليدلّ ذلك علىٰ أنَّ مُسمَّاه لا شبيه له ولا نظير بوجه ما[٤].

ويرىٰ الجوهريُّ أنَّ قطع الهمزة في لفظ الجلالة إنَّما جاز؛ لأنَّه يُنوىٰ به الوقف علىٰ حرف النِّداء تفخيمًا لهذا الاسم الكريم[٥]، بينما ذكر الدُّكتور الحموز: أنَّ في قطع الهمزة إظهارًا لحاجة المنادي الماسَّة إلىٰ رحمة الله، ومساعدته[٦].

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب (١/ ٣٣٦).
(٢) انظر: اللمع (١٨٥).
(٣) اللباب في علل البناء والإعراب (١/ ٣٣٦).
(٤) انظر: شرح اللمع (٢/ ٥٧٣).
(٥) انظر: الصِّحاح (٦/ ٢٢٤٨).
(٦) فن الإملاء في العربية (١/ ٤٥٩).

تعظيم الله في الأمثلة والشَّواهد

عندما تطالع ما يبثُّه النُّحاة في مصنَّفاتهم -سواءٌ منها المتون أو الشُّروح أو مصنفات أخرىٰ مستقلّة، وتعالج قضايا معيَّنة- من أمثلة وشواهد يبدو البعد التَّربويُّ حاضرًا فيها بجلاء؛ فهم لا يضعون الأمثلة اعتباطًا، وكيفما اتَّفق، بل لهم مقاصدُ من ذلك، كتنمية الذَّوق الأدبيِّ، والإسهام في إثراء المخزون اللُّغويِّ، ونحو ذلك. لكن يبقىٰ المقصد التَّربويُّ والإيمانيُّ ذا حضور لافت في أذهان النُّحاة، فليس اعتباطًا أن يُمثِّل ابنُ هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب المبتدأ والخبر) بقوله: «المبتدأ والخبر مرفوعان كـ(اللهُ ربُّنا، ومحمَّدٌ نبيّنا)»[1]، وإنَّما أراد -إلىٰ جانب التَّمثيل للقاعدة النَّحوية- بُعدًا إيمانيًّا عقديًّا يتضمن الإجابة عن سؤالين من أسئلة القبر الثَّلاثة، وهذا -لَعمري- من أحسن ما يكون من التَّمثيل.

ولو أردنا استعراض المزيد من الأمثلة المنسوجة علىٰ هذا المنهج، فستتجه صوب (ألفية ابن مالك) الزَّاخرة بالمضامين الأخلاقية والإيمانية البديعة[2]، علاوةً علىٰ ما تحويه من فوائد وفرائد نحوية سارت بها الرُّكبان، وأقبل عليها الشُّيوخ والغلمان. فهو يقول في مستهلّ (خلاصته) حاثًّا علىٰ مبدأ الاستقامة علىٰ دين الله وتعظيمه:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

جعل الاستقامة خير ما يتسلَّح به القارئ لمنظومته، فبعد أن قال: «أحمد ربي الله» أمر بالاستقامة، وكأنَّه بهذا يحكي ويمتثل قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف]، ومن حصل الاستقامة صفت سريرته، وانقادت له المطالب، وترقىٰ إلىٰ أعلىٰ المراتب، وكذلك فالعلم نور فلا يُعطىٰ لمن يركب الشبهات، ويتقاعس عن الطاعات، ويخلد إلىٰ المنهيات والشهوات. وقريب من هذا دعوته إلىٰ لزوم الرشد والرشاد في قوله:

وقِسْ وكاستفهامٍ النَّفيُّ وقدْ يجوزُ نحوُ فائزٌ أولو الرَّشَدْ

---

(١) شرح قطر الندىٰ (١١٦).

(٢) عقد أحد الباحثين سلسلة علمية بعنوان: (البعد التربوي لألفية ابن مالك الطائى الجياني) قد أجاد فيها وأفاد. انظرها في: منتدىٰ مجمع اللغة العربية علىٰ الشبكة العلمية.

وأولو الرشد هم أولو الإيمان والتوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾[البقرة]، قال الزمخشري: «قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة»[١]، وقال أيضا: «والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضىٰ، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط»[٢]، وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «أي أن أهل الرُّشد فائزون في الآخرة بمطلوبهم، جعلنا الله منهم»[٣].

من ذلك: قوله في (باب المبتدأ والخبر):

والخَبَرُ الجُزْءُ المُتِمُّ فائدَةْ ... كاللهُ بَرٌّ والأيادي شَاهِدَةْ

فكان بإمكان ابن مالك أن يأتي بمثال غير هذا، ولكن لأنَّه رجلٌ صاحب رسالة علمية تربوية أراد تمرير رسالة تحوي معنىٰ تعظيم الله عبر قاعدة نحوية. فقوله هنا: «اللهُ برٌّ» أي: أنّه كثير الخيرات عظيمها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور]، وقوله: «الأيادي شاهدة»، الأيادي جمع أيد وهي النِّعمة، أي: أنَّ نعم الله الكثيرة وآلاءه الوفيرة شاهدةٌ ودالَّة علىٰ كرم الله وبرِّه، وهذا المثال من أحسن ما يُمثَّل به، فإنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحصي نعمة الله عليه، كما قال عزَّ اسمُه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾[النحل].

ويقول أيضًا:

وإنْ تَكُنْ إيَّاهُ مَعنًىٰ اِكْتَفىٰ ... بِـها كَنُطْقِي اللهُ حَسْبِي وَكَفىٰ

يحثُّ ابنُ مالكٍ في هذا البيت علىٰ التَّوكُّل علىٰ اللهِ، والاعتماد عليه.

وحقيقة التَّوكُّل: هو صدق اعتماد القلب علىٰ الله -عزَّ وجلَّ- في استجلاب المصالح، ودفع المضارِّ من أمور الدُّنيا والآخرة كلِّها[٤]. وبناءً علىٰ ذلك؛ فقول ابن مالك: (اللهُ حسبي وكفىٰ) معناه: أنَّ أمري موكولٌ إلىٰ الله سبحانه، وكفىٰ به حسيبًا ووكيلًا، وهذا فيه حضٌّ لطالب العلم علىٰ التَّوكُّل علىٰ ربِّه، وطرح التَّفكُّر في الرِّزق، ونبذِ التَّذبذب والاضطراب.

---

(١) الكشاف (١/ ٣٠٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٢٦).

(٣) المقاصد الشافية (١/ ٦٠٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧).

الخاتمة

بعد هذا التَّطواف حول بعض ملامح التَّعظيم لله عند النُّحاة -لا سيما من تصدَّر منهم لإعراب الكتاب العزيز- نخلص إلىٰ الآتي:

١- لم يكن هَمُّ النُّحاة تعليمَ قواعد الإعراب فحسب، بل سلكوا مسلكًا تربويًّا، حاولوا به غرس معاني تعظيم الله لدىٰ طلاب العلم.

٢- تجلَّت ملامح تعظيم الله عند النُّحاة في صور مختلفة، بدءًا من استحضارهم جانب الإخلاص في مصنَّفاتهم. وهذا ما جعلها تحظىٰ بالقبول بين الأمّة، كما كان معاني تعظيم الله وإجلاله بارزةً في عدولهم عن المشهور من المصطلحات النَّحوية إلىٰ أخرىٰ تحرُّوا فيه مبدأ تنزيه الله عمَّا لا يليق به.

٣- حاول النُّحاة ترسيخ فكرة قائمة علىٰ عدم الفصل بين قواعد الإعراب التي يغلب عليها التَّجريد وبين المقصد الأكبر من إنشاء هذا العلم، وهو تعظيم الله -جلَّ وعلا- وتعظيم كتابه.

٤- مع كون ملامح تعظيم الله عند النُّحاة بارزة جليَّة من خلال المصطلحات والشَّواهد والأمثلة، إلَّا أنَّ تسليط الضَّوء علىٰ هذا البُعد التَّربويِّ قليلٌ بين المهتمين بهذا الفن، وهذا ما يعني ضرورة الاستعانة بهذا المنهج في تعليم قواعد الإعراب، وتحقيق مبدأ التَّكامل بين العلم والأدب.

٥- أكَّد النُّحاة أنَّ العلم والدِّين شيءٌ واحدٌ، ولا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، بمعنىٰ أنَّه يجب الجمع بين التَّربية والتَّعليم، وبين تلَّقي العلم وأخذ الهَدي؛ لأنَّ العلم النَّافع هو ما أورث صاحبَه الأدبَ والخشيةَ ومكارمَ الأخلاق.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع المدني.

١- الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام الأنصاري(٧٦١هـ)، تحقيق د. علي فودة نيل، جامعة الرياض، ط١، ١٩٨١م.

٢- ألفية ابن معط في النحو والصرف والخط والكتابة، ليحيىٰ بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي (٦٢٨هـ)، ضبطها وقدم لها سليمان إبراهيم البلكيمي، دار الفضيلة، ط١، ٢٠١٠م.

٣- أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك، لأبي محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري(٧٦١هـ)، دار الجيل – بيروت، ط٥، ١٩٧٩م.

٤- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٧م.

٥- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م.

٦- تفسير أسماء الله الحسنىٰ، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية – دمشق، د ط، ١٩٧٤م.

٧- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي(٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط١، د ت ط.

٨- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي(٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٩- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لزين الدين عبد الرحمن بن أمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي(٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٧، ٢٠٠١م.

١٠- حاشية الصبان علىٰ شرح الأشمونىٰ لألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١١- الخواص النحوية للفظ الجلالة، د. سعيد بن علي الغامدي، مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم اللغات وآدابها، العدد السادس، ٢٠١١م.

١٢- شأن الدعاء للخطابي، تحقيق: أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، سنة ١٤٠٤هـ.
١٣- شرح ألفية ابن معط لعبد العزيز بن جمعة الموصلي، تحقيق: علي الشوملي، مكتبة الخريجي، ط١، ١٩٨٥م.
١٤- شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، لابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، (٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، ط٢٠، ١٩٨٠م.
١٥- شرح قطر الندىٰ وبل الصدىٰ، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين ابن هشام (٧٦١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د ن، ط١١، ١٣٨٣هـ.
١٦- شرح اللمع، لابن برهان عبد الواحد العكبري، تحقيق: د. رجب عثمان، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
١٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي(٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
١٨- الفريد في إعراب القران المجيد، لحسين بن أبي العز رشيد الهمداني، دار الثقافة – الدوحة، تحقيق: فؤاد علي مخيمر، فهمي حسن النمر، د ط، د ت ط.
١٩- فن الإملاء في العربية، د. عبد الفتاح الحموز، تحقيق: د. يوسف طويل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٢٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٢١- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٢- اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (٦١٦هـ)، تحقيق: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

٢٣- المبسوط في القراءات العشر، لأحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوري(٣٨١هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي مجمع اللغة العربية – دمشق، د ط، ١٩٨١م.
٢٤- المحصول في شرح الفصول، للحسين بن بدر بن إياز، تحقيق: شريف النجار، دار عمان - الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
٢٥- مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، لإبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري، دار الحضارة للنشر - الرياض، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.
٢٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول اللهﷺ، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري(٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د ط، د ت ط.
٢٨- مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٥ه.
٢٩- معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد(٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩ه.
٣٠- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء(٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، د ت ط.
٣١- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٣٢- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، لإبراهيم بن موسىٰ الشاطبي، تحقيق: عبد الرحمن العثيمين وآخرين، تحقيق: معهد البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرىٰ، ط١، ٢٠٠٧م.
٣٣- منازل السائرين، لعبد الله الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٨م.
٣٤- موصل الطلاب إلىٰ قواعد الإعراب، لخالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري(٩٠٥هـ)، تحقيق: عبد الكريم مجاهد، الرسالة – بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٣٥- النجم الثاقب شرح كافية ابن الحاجب، لصلاح بن علي بن أبي القاسم، تحقيق: محمد جمعة حسين: مؤسسة الإمام زيد الثقافية- صنعاء ط١، ٢٠٠٣م.
٣٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

فهرس الموضوعات

	المقدمة	٢
	معنىٰ تعظيم الله	٣
	تعظيم الله عند النحاة	٥
	تعظيمهم لله في وضع المصطلحات	٨
	التعامل مع لفظ الجلالة	١٣
	تعظيمهم لله في الأمثلة والشواهد	١٩
	الخاتمة	٢١
	فهرس المصادر والمراجع	٢٢
	فهرس الموضوعات	٢٦